بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

لم يعرف العرب والمسلمون رجلاً جمع الفضائل ومكارم الأخلاق بعد الرسول محمد(ص) كالإمام علي. تميز واشتهر بالفصاحة والحكمة وبسيرة عطرة مع أصدق وأنبل الصور الانسانية. الانسان القوي العادل الذي أخلص فكره وروحه في خدمة الانسانية.

هذا القول المأثور والمشهور ((اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)) الذي ينسب للإمام علي استوقفني طويلا حين قرأت في طياته الكثير من الحكم، وتمثل هذه الحكمة الخطة الحياتية التي يجب أن يضعها الانسان لنفسه.

تعطينا أقوال وخطب الامام علي الاحساس بأننا ممكن أن نفهم عمق قوله وندرك أبعاد شخصه بدون بذل جهد كبير. لكن الحقيقة هي أعمق مما نتصور. هذه السهولة البلاغية تخفي وراءها هندسة عظيمة من الفلسفة العميقة.

كيف جمع الامام بين هاتين الصورتين: إمام وخليفة؟ وبين القوة والرحمة؟ وبين الدنيا والآخرة؟ وبين الموت والخلود؟ وبين أخ في الدين ونظير في الخلق.

إن نظرة الامام علي للإنسان والحياة واضحة المعالم، متجانسة ومتكاملة الأبعاد في سياق يمسك بقاعدتين فكريتهما: دينية ودنيوية ((اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)).

قد تبدو للبعض قاعدتين متناقضتين، ولكن من خلال تفحص فكر الامام نستطيع أن نجد أن هناك امكانية واضحة للتعايش بين هاتين القاعدتين. انها فلسفة في الحياة تفاؤلية، ملتزمة بقاعدة التطور الانساني التي تخضع إلى نظام وضوابط يجب احترامها، مع أفق واسع من الحرية الشخصية.

الهدف من البحث: معرفة جواب الامام علي لسؤال وضعته البشرية من يوم ولادتها وليومنا هذا وهو: ماهي الحياة الكريمة لإنسان غير خالد؟ نحاول رسم صورة هذا الجواب من خلال فكر الامام وفلسفته للحياة وللإنسان ونظرته الثاقبة(خليفة)، وبروحه المتواضعة(إمام).

مفهوم الحياة والانسان: هل يمكننا تعريف الحياة؟ مثل هذا السؤال لا يخلو من الغموض، لأن مفهوم الحياة يشمل أساسا معنيين، على الرغم من ارتباطهما ارتباطاً وثيقاً، يظلان مع ذلك متميزين. عرفها كل من غاندي ومثلها كالسفينة التي تحتاج إلى قيادة ودين أي قيم، وكذلك سقراط، وشكسبير، وميكافيلي، وسينيك،غوته، وتولستوي(١). من ناحية يمكننا أن نفهم من خلال الحياة مجموعة من الظواهر التي تساهم في نمو الكائن وحفظه، وهو معنى يتجسد في الفاعل الحالي للفعلٌ يعيشٌ . الحياة من ناحية أخرى، ممكن أن نعتبرها هي نتاج لمجموعة ظواهر تقاوم الموت وانها ارادة القوة حسب تعريف الفيلسوف نيتشه (٢)، أي الوقت الذي ينقضي بين الولادة والممات.

في هذا النص يرسم الامام علي الانسان كنقطة ضائعة بين اللامتناهيين، الحياة والموت، الدنيا والآخرة. تنطلق رؤيته للعمل وللحياة والدين من خلال منظور فلسفي مما يجعل الانسان يفكر في معنى المفاهيم المهمة مثل الخلود والموت، والدنيا والآخرة، وجعل العمل كأساس لما يترافق معه من العمليات المختلفة. كذلك يؤكد بوضوح على أن محرك الحياة والخلود، ومحرك الموت والفناء، هما وجهان لوجود واحد وهو العمل. ففلسفة العمل تقابل فلسفة النظر، وترادف فلسفة السلوك الانساني، أي ربط النظر بالعمل. أحيانا العمل يتحرك نحو الفناء، وأحيانا أخرى يتحرك نحو الخلود. الشعور بالموت يشكل انسانية الانسان. هذا النص هو خطاب ودعوة للإنسان ليس فقط الى كيفية العيش في الحياة بل أيضا والأهم يدعو الانسان إلى كيف يواجه الحياة. يوجد اختلاف كبير بين المفهومين. الحيوان والنبات والانسان يعيشون في الحياة، ولكن الانسان يتميز بشيء آخر هو أنه يواجه هذه الحياة.

والمواجهة تعني العمل بالفعل. المواجهة لا تعني فقط حل المشاكل، بل تعني ايجابية العمل وحضور الخير للإنسان. ورد في الحديث الشريفٌ ان من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وان من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير (٣).

نص بلاغي وفلسفي

مفهوم النص عند المسلمين: مفهوم النص عند علماء المسلمين القدامى لاسيما الأصوليون، فقد كان مفهوم النص عندهم بصورة أخرى. فتحدثوا بعبارات كثيرة أشهرها ما ذكرها الشافعي(ت٢٠٤هـ) بأن: هو المستغني بالتنزيل والتأويل. هو الكلام الذي لا يحتمل التأويل والتفسير لأن ظاهره يغني عن كل ذلك(٤). وهذا التعريف حظي بقبول حسن عند كثير من العلماء في ذلك العصر ومنهم أبو حامد الغزالي(ت٥٠٥هـ)، وابن حزم(ت٤٥٦هـ) وغيرهما، ولم يخالفوه في بعض الجزئيات(٥).

مفهوم النص عند الأوربيين يعد النص عند الاوربيين سياق أدبي يتكأ على الزمن. مهما كان نوع النص ومصدره. ويستخدم الأوربيون منهج التاريخ في القراءة والمبني على عملية النقد الشامل للنص والتراث والممارسة التي تنتج عنها. هذه المناهج تتخذ من الانسان مرجعية عقلية، متخذة في الوقت نفسه من الفلسفة منهجاً مستخدمين أدوات أو وسائل منهجية مختلفة مثل الانثروبولوجي والسوسيولوجي ومن رواد هذا المنهج هو الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو(٦).

إن قول الامام علي اعمل لدنياك....، نص أدبي وفلسفي متجانس. فلا هو من الأدب الخالص، ولا هو من الكتابة الفلسفية التقليدية بشيء. لا شك إن العلاقة بين الفلسفة والأدب هي علاقة معقدة. وهذه العلاقة بين ميدانين مختلفين ظهرا منذ نشوء الفلسفة اليونانية في القرن السادس قبل الميلاد. فقد قدمت الفلسفة نفسها كطريقة جديدة في فهم العالم، وتعتمد على مبادئ السببية والغائية والتفكير المنطقي الذي جاء ليحل محل التفسير الاسطوري للعالم الذي كان يعتمد على المخيلة والبلاغة بصورة أساسية. أي إن الفلسفة

اتجاه يخاطب العقل على خلاف الخطاب الشعري البلاغي الاسطوري الذي يسعى بدلا من ذلك إلى إنارة المخيلة. هكذا صار عند الاغريق خطابان متقابلان متميزان، الأول هو الخطاب العقلاني البرهان الاستدلالي متمثلاً بالفلسفة، والثاني هو الخطاب البلاغي يقع في إطار الشعر والأسطورة والملحمة.

أعاد الفلاسفة الألمان في العصر الحديث، ومنهم نيتشه وهيدغر، الشعر والبلاغة للفلسفة، وسار على خطاهما بعض الفلاسفة الفرنسيين ومنهم سارتر ودريدا، حتى أصبح للخطاب الأدبي حضوراً مهيمناً في نصوصهما لاسيما الأكثر فلسفية فيها.

أما الامام علي، فهو أول من أبدع في هذا الحقل بالجمع بين البلاغة والفلسفة. وبما إننا في حقل التاريخ الاسلامي، سنكتفي بعرض التعريف الشائع بين فلاسفة المسلمين للفلسفة. ويبدو أن التعاريف اتفقت على كون الفلسفة هي الوصول إلى الحقائق عبر الطاقة البشرية. فمثلا ابن سينا يعرّفها بقوله: "استكمال النفس الانسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعلمية على قدر الطاقة الانسانية". وفي السياق نفسه عرّفها أخوان الصفا والفيلسوف صدر الدين الشيرازي. ومن الواضح أن جميع التعاريف تؤكد على أن الفلسفة هي تحصيل المعرفة بقدر الطاقة الانسانية وتمثل الاعتماد على العقل دون غيره في تحقيق المعرفة.

يرى افلاطون الفلسفة هي معرفة الحقيقة بصورة مطلقة، وهي تجيب على أسئلة الحياة. وأهم سؤال وضعته البشرية منذ وجودها إلى يومنا هذا هو: ما الحياة الكريمة والسعيدة لإنسان غير خالد؟ ليس السؤال هو المهم، بل الجواب هو الأهم. البشرية أجابت على هذا السؤال عدة أجوبة حسب الزمان والمكان، ومنه جواب الامام علي في النص المذكور. ولمعرفة تفاصيل جواب الامام علي علينا أن نبين وباختصار شديد الأجوبة الأخرى على مر التاريخ وليومنا هذا حتى يسهل علينا مقارنة جواب الامام علي بالأجوبة الأخرى.

الأساطير: تفسر الأساطير بصورة عامة الظواهر الطبيعية من خلال علاقتها بالآلهة. وقد ورد هذا في الأساطير السومرية والاكدية بحدود ٣٥٠٠ ق.م. في بلاد الرافدين، ومن بعدها الأساطير الاغريقية التي كتبت بعد ثلاثة عشر قرناً من الأساطير السومرية، وتفيد بأن الحياة الكريمة والسعيدة لإنسان غير خالد تمر من خلال المصالحة بين الالهة والانسان، وكذلك بمعرفة السنن الكونية التي يسميها الاغريق بالكوسموس. لذلك انشغل علماء وفلاسفة بلاد الرافدين والاغريق بالعلوم الطبيعية ومنها الفلك، والرياضيات والكيمياء والفيزياء ومنهم فيثاغورس وأرخميدس وبطليموس وسقراط. وأجاب الفيلسوف اليوناني افلاطون بوضع السؤال بصيغة أخرى وهو: ماهو نظام الحكم الذي يحقق حياة كريمة لإنسان غير خالد؟ فأجاب بالقول: الانسان جزء من الكون وهو يتكون من الرأس في الأعلى والقلب في الوسط والأطراف في الأسفل، فيجب عمل نظام للحكم يتناسب مع طبيعته البايولوجية، الرأس هم الحكماء والعلماء، والقلب هم الجنود لحماية الرأس، والأطراف هم أصحاب المهن المختلفة من العمال والمزارعين والتجار وغيرهم.

الديانات السماوية: يأتي الجواب لديها من الايمان بالخالق والاعتقاد بوجود خالق مدبر لكل شيء وما على الانسان إلا طاعته والامتثال لأوامره. ومن هذا المنطلق فإن طاعة الخالق تجعل الطبيعة تخضع له. ونظرية المعرفة بنيت على معرفة الشريعة وليس السنن الكونية.

الفلسفة: تقول الفلسفة من أجل الحصول على حياة كريمة لإنسان غير خالد لا تتم عن طريق المصالحة مع الآلهة، ولا عن طريق الايمان بالخالق، بل عن طريق العقل. وهذه العقيدة للخلاص عن طريق العقل قد مرت بمراحل تاريخية أولها كان عن طريق علاقة الانسان بالآخر ومنها شرّعت قوانين تنظّم علاقة الانسان بالآخر، وفي أوائل القرن العشرين أصبحت الاجابة تعتمد على علاقة الانسان مع نفسه وليس مع الآخر.

من هذه المقدمة الموجزة للإجابات المختلفة، اذن ما هو موقع أطروحات الامام علي من هذه الأجوبة؟ للحصول على الاجابة القريبة للحقيقة، علينا استخدام منهجية حديثة في تفسير النص وهي التفكيك والبناء للفيلسوف الفرنسي دريدا. النص هو ((اعمل لدنياك كأنك تعيش أبد واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)).

اعمل، دنيا، آخرة، خلود، وموت. هذه الكلمات الخمس هي المفاتيح لتفصيل هذا النص. وبما أن المنهج المستخدم هو فلسفي، وللفلسفة بنية خاصة كسائر العلوم، إلا أن موضوعها طبيعة الوجود(المكان)، ونظام الوجود (القيم)، والهدف من الوجود (المعنى). فالدنيا والآخرة تمثل الوجود في هذا النص. أما النظام أو القيم فهو العمل. والمعنى من الوجود الانساني هو الخلود عن طريق الموت.

هذا النص يوّلد عدة اشكاليات يجب حلها وهي:

كيف تجمع بين الخلود والموت؟ وبين الدنيا والآخرة؟ وبين الخيال(كأنك تعيش أبدا وتموت غدا) وبين الحقيقة بأنك غير خالد وغير ميت؟. كلنا شاهدنا حالة الموت إلا أننا لم نعشها، كذلك خلود الأشياء لأننا لن نعيش حالة الخلود. هذه الاشكاليات سوف نجيب عليها عن طريق الفلسفة. ماهو مفهوم الوجود والقيم والمعنى للوجود عند الامام علي؟ اذا توصلنا الى معرفة هذه المفاهيم ممكن أن تساعدنا في حل الاشكاليات السابقة.

١.**الوجود (المكان)**: اعتبر الامام الوجود في هذا النص هو الدنيا والآخرة. الدنيا هي المكان للعيش وللتحدي ، وممر الى مكان مستقر آخر وهو الآخرة، فيقول: ((وأحذركم الدنيا فإنها منزلة قلعة وليست بدار نجعة قد تزينت بغرورها وغرت بزينتها. دارها هانت على ربها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها...خيرها زهيد، وشرهـــا عتيد، وجمعـها ينفد، وملكها يسلب، وعامرها يخرب)) (٧).

يصف الامام هذا الوجود على أنه وجود مؤقت ،وكذلك يصف نظام هذا الوجود الذي تحكمه ثنائية متناقضة وهي ثنائية الحلال بالحرام، والغنى بالفقر، والعمران بالخراب،

وحلوها بمرها. فضلا عن قصر مدتها بقوله تعالى " قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال لبثتم إلا قليلا لو كنتم تعلمون(المؤمنون:١١٢). وكذلك قوله لولده الامام الحسن: ((واعلم يابني انك خلقت للآخرة لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة، وانك في منزل قلعة ودار بلغة وطريق الى الاخرة))(٨).

إن الاشكالية هنا، كيف يمكن للإنسان أن يعيش في الدنيا وكأنه خالد ويعمر فيها وهو يدرك قصر عمرها و خرابها وزيفها وعدم وفاءها وغدرها؟ كيف يمكن لإنسان أن يعمر شيء لن يحبه وهو رأس الفتن وأصل المحن ويقول حب الدنيا رأس كل خطيئة؟ من الأولى أن يخشاها ويبتعد عنها ويهرب من أمامها ويتركها كما تركها بوذا وسقراط والمسيح بن مريم حين قال ((وان شئت قلت في عيسى بن مريم.. ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته ولا طمع يذله دابته رجلاه وخادمه يداه)) (٩) ومن بعدهم الأنبياء والزهاد وهو واحد منهم؟.

أعطى الامام الجواب على هذه الاشكاليات أولا بالمعرفة الدقيقة لقوانين الوجود وما على الانسان إلا أن يرافقها وعدم مقاومتها بقوله: ((..ان أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا اذا نظر الناس الى ظاهرها، واشتغلوا بآجالها اذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها وخشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم...))(١٠)، وثانيا بثنائية فلسفة الشيء ونقيضه.

أولا نظرية المعرفة: نظرية المعرفة بنيت عند الامام على أن الكون مقدس ومخلوق من الباري عز وجل بكل دقة وبكل نظام. هذه النظرية جعلت من أبن أبي طالب:

هو الامام اذا عدو الأئمة بقوله:((من نصب نفسه للناس اماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم))(١١).

وهو الحكيم اذا عدو الحكماء بقوله: ((عش لدنياك كأنك تعيش أبدا وعش لآخرتك كأنك تموت غدا)) (١٢).

وهو الفيلسوف اذا عدو الفلاسفة بقوله:((الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة))(١٣).

وهو الحليم العافي اذا عدوا الحلماء والعافين. يقول بن أبي الحديد المعتزلي في كتابه نهج البلاغة، كان الامام علي أحلم الناس عن ذنب وأصفحهم عن مسيء وذلك بقوله: ((اذا قدرت على عدوك فأجعل العفو عنه شكرا لقدرة عليه)) (١٤).

وهو الزاهد اذا عد الزهاد بقوله:((ازهد في الدنيا يبصرك الله عوراتها))(١٥).

وهو الشجاع اذا عد الشجعان بقوله: ((ان أفضل الموت القتل والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من الموت على الفراش))(١٦).

وهو التقي اذا عد التقاة بقوله: ((فالمتقون فيها هم أهل الفضائل. منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع))(١٧).

السؤال الذي يطرح وهو : كيف اجتمعت كل الخصال الحميدة ، والقيم المجيدة ، ومحاسن الافعال ، وكمال الخصال ، في رجل واحد أسمه علي بن أبي طالب؟

لماذا لم تجتمع ولو أعشارها في رجل لا من قبله ولا في عصره ولا من بعده ؟

هل لأنه :كان يؤمن بالله الاحد القهار ؟. الجواب لا. لأنه كان قبل الامام علي وحينه أناس يؤمنون بالله الواح من اليهود والنصارى والمسلمين ، وقسم منهم استشهدوا بسبب عقيدتهم.

كان من أولئك الذين عاصروا رسول الله (ص) ولازمه فترة طويلة؟. الجواب لا. لأنه كان هناك من عاصروا وعايشوا النبي (ص) أكثر فترة من الامام علي.

هل كان ممن صاهر رسول الله (ص) ؟. الجواب لا. لان كان هناك من صاهر رسول الله مرتين.

هل كان من أشجع بني قومه ؟. الجواب وأن كان أشجعهم. لكن تم تجتمع في أقل شجاعة منه أعشار مما اجتمعت عند الامام علي.

اذا كانت لا القرابة والصحبة والمصاهرة والمعايشة مع رسول الله (ص)، ولا الايمان بالله الواحد القهار، ولا الكرم والتقوى والزهد هي الوحيدة والكافية التي جعلت من بن أبي طالب أن يكون عليا وسرا الاهيا، اذن ياترى ما هو هذا اللغز والسر العجيب؟

الرجال الذين تركوا بصماتهم في مسيرة التأريخ الانساني ، بنوا جل أفكارهم على نقطة بداية. وعلى ضوئها بنوا صرحا من العلوم والمعرفة. مثال على ذلك:

كارل ماركس: وجد المفتاح الرئيسي الذي به يفسر التأريخ وهي نظرية " الصراع الطبقي(١٨).

دارون : الحياة نشأت من أصل واحد ، ومنها وضع نظرية " أصل الانواع "(١٩)

أينشتاين: أراد أن يعرف أول معادلة رياضية على أساسها بني الكون، فوجد "النظرية النسبية "(٢٠).

هويل وغيره وجدوا نقطة بداية الكون ، ومنها نظرية " البيك بونك "(٢١).

نيتشة: بنى نظريته الفلسفية على أنه المحرك الرئيسي للإنسان هو " حب أمثلاك القوة"(٢٢).

الاديان التوحيدية نقطة الانطلاق لها هي " التوحيد الالاهي ".

السؤال هو : ما هي نقطة الابتداء للإمام علي والذي بنى على ضوئها جل نظرته وفلسفته للإنسان والحياة؟ هذه النقطة لا يمكن معرفتها الا من خلال شيء تفرد به الامام علي عن عامة الناس قاطبة. لم يشاركه أحد لا من قبله ولا في حينه.

حسب رؤية الامام، مصادر المعرفة متعددة منها العقل والفطرة والحواس والايحاء. كل هذه المصادر تعد قوى لمعرفة الوجود بكل تفاصيله ومنها معرفة نظام الوجود أي القوانين التي تحكم هذا الوجود التي تسمى بالسنن الكونية سواء المرئية أو الغيبية. هذه النظرية اقتبسها

الامام من القرآن الكريم. وكان الامام يعد صدر المفسرين للقرآن، وبحراً للعلم، قوي الحجة سليم الاستنباط، وذو عقل راجح وبصيرة نافذة إلى بواطن الأمور وكثير ماكان يرجع اليه صحابة الرسول. وهناك حديث" علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض" (٢٣).

أكد القرآن نظرية المعرفة للوجود بقوله تعالى: ((أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكـر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر))(الغاشية: ٢٢).

استخدم الامام علي نفس المنهج القرآني في معرفة الوجود وتفحص مكوناته بالتفصيل الدقيق الذي بنى على ضوئه جل نظرته وفلسفته للإنسان والحياة. وهذا المنهج قد تفرد به الامام علي عن الناس قاطبة. لم يشاركه أحد لا من قبله ولا في حينه.

تفرد الامام علي دون سائر الناس جميعا في ما يتعلق بوصفه الدقيق والعميق لخلق الكون، والملائكة ، والانسان ، والطاووس ، والخفاش ، و النملة ، والجراد. وصفها وكأنه عالم من علماء الحيوان والحشرات والفيزياء والبايولوجي. ومن اقواله:

وصف خلق الكون : ((أمال الاشياء لا وقاتها. محيطا بحدودها وانتهاءها، عالما بها قبل ابتداءها **وأمرها** أن تقف مستسلمة لأمره)) (٢٤).

وصف الملائكة : ((عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، عصمهم من ريبب الشبهات. فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته)) (٢٥).

وصف خلق الطير:((أسكنها أخاديد الارض وخروق الجبال.... فالطير مسخرة لأمره))(٢٦).

وصف خلق الانسان : ((جمع سبحانه من خزائن الارض وسبخها تربة.....فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول أجمدها حتى استمسكت ثم نفخ فيها من روحه

فتمثلت أنسانا ذات أذهان يجبلها. وفكر يتصرف بها وأدوات يقلبها ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل)) (٢٧).

هل أراد الامام علي من هذه الاوصاف الدقيقة أن يرينا جميل صنع الباري ، وقدرته وعظمته ودقة صنعه ؟ أذا كان هذا هو السبب ، أولم يك فوصف أثنين أ ثلاثة من هذه المكونات الكونية لكي تصل رسالته الى العالم ؟الجواب هو ليس هذا السبب الرئيسي. إذن ماذا أراد الامام علي بالذات من هذه الاوصاف الدقيقة؟. سوف نبين الجواب في الفقرة الأخرى عند التكلم عن نظام (قيم) الوجود.

ثانيا ثنائية فلسفة الشيء ونقيضه: الشيء ونقيضه من المفاهيم العميقة التي حكمت الفكر الانساني منذ القدم، وسميت بأسماء مختلفة منهاٌ الخير والشرٌ التي ارتدتها الديانات باختلاف مرجعياتها، وقد نقح الفكر الفلسفي هذه الثنائية حتى اتخذت لنفسها طابعاً مغرياً، أضحت معه قادرة على كثير من المفاهيم تحت مظلتها، حتى إن الفلسفة بعينها قامت على أساسها وبصورة خاصة الفيلسوف كانط الذي صاغها في عبارتي الشيء في ذاته والشيء لذاته.

أنشغل الامام علي إلى أبعد الحدود بالكشف عن العمق الذي يحكم الانسان ويوجه تفكيره وأحاسيسه، فاستخدم هذه الثنائية الفلسفية من أجل صياغة نص أدبي وبلاغي وفلسفي عميق وبعيد الغور من أجل الاجابة عن السؤال الذي وضعته البشرية منذ الأزل وهو ماهي الحياة الكريمة والسعيدة لإنسان غير خالد.

جعل الامام من لفظة الخلود والموت، الدنيا والآخرة، احتدام بين هاتين اللفظتين المتناقضتين، ليلد تضادهما وعي انساني يتفتح معها شهية البحث عن حقيقة الحياة والمعنى من الوجود.

إن فلسفة الشيء ونقيضه أخذها الامام من القرآن الكريم بقوله تعالى:ٌ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (الذاريات:٤٩). وهذا واضح أن أي شيء قائم من زوجين، ولما

كان كل من الزوجين نقيض للآخر، أي معرفة الشيء قائمة بنقيضه، وعلى هذا عرف الامام حياة الدنيا بنقيضها الآخرة، وعرف الخلود بنقيضه الموت. التوازن في الحياة يحدث كل منهما بالآخر. فاستقر الخلود بنقيضه الموت، واستقرت الدنيا بنقضيها الآخرة. على سبيل المثال، الانسان يموت كفرد لكنه يخلد عندما يترك وراءه نسل أي الذي يخلد الجنس البشري وليس الفرد. كذلك الذي يخلد هو العمل الذي يخدم الانسانية والذي يموت هو العمل الذي يخدم الأنانية. ويؤكد هذا المنطلق القرآن الكريم بقوله تعالى: ٌ انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفوراٌ (الانسان: ٣). وكذلك قوله تعالى: ٌ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساهاٌ (الشمس:٧-١٠).

٢. **نظام الوجود (القيم):**للقيم مكان مهم في الفلسفة وفي بناء المجتمع ونظام الحكم. بدأت فكرة القيم بتعريف الانسان. ماهو الانسان؟ ماهو الفرق بين الانسان والآخر النقيض له هو الحيوان؟ الأساطير والأديان وفلاسفة العصر الحديث أكدوا بأن الانسان هو الكائن الوحيد صاحب قيم لا فوقه الملائكة ولا تحته الحيوان يملكون القيم. اعطوا تعاريف للإنسان وفي ضوئها شرعوا القوانين لتنظيم حياة الانسان والمجتمع والدولة. هذه القوانين بنيت على أربع قيم وهي:

القيم الأرستقراطية (مبنية على الوراثة)، والقيم الدينية(المبنية على المساواة بين البشر)، وقيم الجمهورية الحديثة (المبنية على ما يقدمه الانسان للآخر).

أراد الامام علي أن يؤكد بأن الكون يسير بنظام دقيق وعادل وما على الانسان الا أن يكتشف هذا النظام ويسير معه ، والذي يسير ضد السنن الكونية هو نتيجة جهله لهذه القوانين. فالعمل هو القدر الذي جعله الخالق لكل المخلوقات. الطير والسمك والأبقار والأسود والأنسان يجب ان ينتقلوا ويجهدوا ويعملوا لكسب قوتهم واستمرار حياتهم.

أراد الامام علي أن يقول إن الله خلق نظامين مختلفين لعالمين مختلفين. الاول عالم غير الانسان وهو عالم الملائكة والشجر والحجر والطير والحيوان وكل الحيوانات الاخرى.

صفات خلق هذا العالم أنه عالم مسير لا مخير. لم يملك حق الاختيار. أنه مبرمج مسبق حسب قوانين الجبرية والقدرية. ولذا يقول : ((امرها أن تقف مستسلمة لأمره . فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته. مسخرة لأمره)).

أما العالم الثاني ، وهو عالم الانسان : عالم يملك حرية الاختيار ، لم يكن مبرمج مسبقاً ، ولذا يقول: ((يفرق بها بين الحق والباطل)).

ماذا نستنتج من هذين التصنيفين ؟ ماذا كان يدور في ذهن وفكر الامام علي ؟

وكأنه أراد الامام علي أن يقول إن الحرية هي الفيصل بين العالمين، وانها أعلى قيمة انسانية. الانسان هو الكائن الكوني الوحيد الذي يمتلك الحرية، أنها هبة من الله لايعطيها لغيره أنها مقدسة. وفقدان هذه الحرية ، هو الانتقال من عالم الانسان إلى عالم الحيوان. وسلب هذه الحرية هي الاعتداء على أكبر الحرمات المقدسة. ولذا يقول : ((لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقين لزمان غير زمانكم)) (٢٨). وعلى ضوء هذه النقطة بنى الامام علي جلّ أفكاره، ومنها نستطيع أن نفسر مجمل تصرفاته.

حرب صفين شاهدة على ذلك: عندما أوشك جيش الامام أن ينتصر على معسكر معاوية، وخدعة التحكيم التي وقع في فخها فريق الامام علي ، وعلى الرغم من تحذيره لهم، إلا أن الاكثرية أرادة وقف الحرب. وكان الامام يعلم أن النزول عند رغبة الاكثرية سوف يضع أهم تجربة إنسانية مقدسة في مهب الريح. احترامه لهذا المقدس الذي به تميز عالم الانسان عن عالم الحيوان ، فقال لهم : ((وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون))(٢٩). وقوله:((أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق))(٣٠) ، يريد أن يقول : أن العامل المشترك والموحد للإنسانية هو قيمة الحرية. والانسانية ورثت نفس الارث المقدس.

فلنذهب بعيدا في فكر الامام علي. ماذا كان يتحسس في قلبه وعقله لهذين العالمين، عالم الانسان والعالم غير الانساني ؟

يرى الامام علي العالم غير الانساني وهو عالم الحيوان ، عالم ذو طباع ثابتة لا تتغير مع الزمن. الثعلب يبقى ماكراً عبر ملايين السنين. الاسد يبقى وحشا والكلب يبقى كلبا. أي أن هذا العالم يكرر ما عمله آباءه منذ ملايين السنين. لذا هذا العالم لا تاريخ له ، لأن حياته بنيت على التكرار.

هذا العالم غير الانساني ، لا مكان فيه للضعيف. شريعة القوي تأكل الضعيف.

هذا العالم لا يتكلم. هزة أرضية أو بركان أو عاصفة أو الاسد عندما يهجم على فريسته، لا تنبيه ولا تحذير.

أما العالم الثاني ، وهو عالم الانسان ، عالم لا طبع له. تجد أخوة من نفس البيت كل يبني حياته بطريقة تختلف عن الآخر. لذلك للإنسان تاريخ. وهذا يفسر قول الامام ((لا تقسروا أولادكم)).

العالم الانساني ، عالم القوي فيه يحمي الضعيف. حماية الفقير والمحتاج واليتامى والمساكين والارامل والكهول. هذا العالم يتكلم. أي يحذر وينبه ويصحح.

كان الامام علي يحذر الناس من الانتقال من عالمهم الانساني إلى العالم الحيواني على الرغم من الضغوط التي كان يعاني منها ، لم تزحزحه قيد أنملة من عالمه الانساني. كان الامام علي إنساناً كاملاً بمعنى الكلمة. ولذا كان يقول : ((أحذركم من الدنيا فإنها منزل قلعة – أي ليست مستوطنة– وليست بدار نجعة –أي محط رحال ومنتجع– كم واثق بها فجعته وذي طمأنينة اليها قد صرعته. أفهده الدنيا تأثرون أم أليها تطمئنون أم عليها تحرصون. ملكها مسلوب وعزيــزها مغلوب وموفــورها منكوب وجــارها محروب)) (٣١).

جسد الامام علي بامتياز ثنائية الدين والدولة، ثنائية إمام وخليفة. ولكل مساحة لها قيمها الخاصة ونظامها الخاص. كخليفة يجسد القيم الخلقية التي تحفظ كرامة الانسان وانسانيته. هذه القيم هي فطرية دعت لها البشرية في كل مراحل تاريخها، وهي الحرية، والعدالة والمساواة، والسلام، والوفاء، والمحبة. هذه القيم هي أفكار ولكنها تصبح أخلاق حينما

تتحول إلى سلوك بموجب قانون أو سلوك عام. على سبيل المثال: قيمة المساواة هي فكرة، تتحول إلى أخلاق حينما يشرع قانون مجانية التعليم للأطفال من ثلاثة أعوام إلى ستة عشر عاماً بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية والأثنية والدينية والطبقية والجنسية، فتحولت القيمة الى أخلاق. وتطبيق القيم يختلف من بلد لآخر ومن حقبة تاريخية لأخرى.

وعلي إمام، فإنه يجسد القيم الروحية، وهي تختلف اختلاف كبير عن القيم الخلقية. لتوضيح هذه الفكرة أضرب مثال على ذلك. ممكن أن نكون ذو أخلاق عالية ونجسد منظومة من القيم الطيبة إلا أنها لا تمنع أن نكون خائفين من الموت، وخائفين على مستقبل أبناءنا، وخائفين من غد و.... القيم الروحية هي التي تتغلب على الخوف. والتاريخ يشهد بشهادة جميلة ويذكرها القرآن الكريم بقوله تعالى: ((اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا)) (اتوبة:٤٠). صاحب الرسول كان يملك القيم الخلقية إلا أنه لم يملك القيم الروحية التي يملكها الرسول.

مصدر الخوف هو الأمل. القيم الروحية تقتل الأمل. قال الامام في هذا المضمار: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل (٣٢). كذلك قوله: أكثر الناس أملاً أقلهم للموت ذكراً(٣٣). كان الامام علي حكيما، والحكيم يحن قليلا للماضي، ويأمل قليلا للمستقبل، ويعيش كثيراً في الحاضر.

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، أي كأنك تعيش في حاضر طويل لا نهاية له، أما كأنك تموت غدا، أيضا لا أمل في غد بعيد. ففي الحالتين ينعدم فيهما المستقبل، والمستقبل هو الأمل. والأمل هو مصدر الخوف، والخوف هو قيمة غير روحية.

كتب عن الامام علي كثيرا، ومن أشهر ماكتب عنه المفكر والأديب جورج جرداق كتابه الشهيرٌ "الامام علي صوت العدالة الانسانية " (٣٤). لا أحد يشك باهتمام الامام بهذه القيمة الخلقية التي تجسدت في سلوكه اليومي، إلا أن العدالة التي كان يرمي لها الامام علي والتي هي اساس بناء حياة كريمة وسعيدة لإنسان غير خالد، هي أن يعادل نفسه مع

النظام الكوني. أي أن يجد مكانه الصحيح في هذا العالم. العالم صورة كبيرة متكونة من ملايين القطع، وما على الانسان إلا أن يجد مكانه في هذه الصورة الجميلة، وهذا لا يتم ما لم يعرف الصورة(الوجود) بكامله، ويعرف نظام ترتيب القطع التي تكوّن هذه الصورة. العدالة هي عدول القطعة الصغيرة في مكانها المرسوم لها.

٣. **المعنى من الوجود (الهدف):** غالبا ما يطرح هذا السؤال الميتافيزيقي في شكل سلسلة من الأسئلة: من نحن ومن أين أتينا؟ ولماذا أتينا وماذا يمكننا أن نفعل هنا وماذا نأمل ؟ والى أين نذهب؟.

عبر التاريخ في الثقافات البشرية، تناولت العديد من التيارات الفكرية والفلسفية والدينية والعلمية هذه الأسئلة لمعالجة كل منها على طريقتها الخاصة، مما أدى إلى ظهور العديد من المناهج المختلفة بل والمتناقضة في بعض الأحيان.

أجاب الامام علي على هذه الأسئلة لأنه أدرك بوجود تعطش محفور في قلوب البشر لمعرفة سر الوجود وبصورة خاصة الوجود البشري. وهذا يفسر عالمية الامام علي وشهرته لأنه اعطى معنى للوجود الانساني وبيّن أن هذا الوجود لا يحرر الانسان من نفسه ذاتيا، بل من الضروري المرور به والعمل فيه. كذلك سعى الامام بشرح وتفصيل هذه الوجود ونظامه وسننه لإعطائه سبب، أي ليس فقط كأساس ولكن أيضا كغاية ممكن للإنسان أن يضع نفسه فوق الوجود.

كذلك، وضح الامام بأن معنى الحياة والوجود يكمن في قيمة أعمالنا في حين ينتظر الانسان الحكم الإلهي، الذي يمكن أن يحدث بعد الموت أو في أي لحظة من الحياة. جمع الامام الوجود البشري المحكوم بالعمل، بالوجود الإلهي الغيبي الذي نراه في كل مكان وهو المنظم والمدبر لهذا الوجود. لأن الانسان في حقيقته هو ذات في طور الامكان، أي أنها طاقات مركزة غير مفعلة تسير في الحياة مساراً يحولها من الامكان نحو التحقق ومن التعطيل نحو التفعيل. وما الخوف من الموت إلا هو عامل معطل لتلك الذات، فعبّر

الامام عن الوجود الإلهي المنظم والمدبر لهذا الكون حتى يدفع الانسان لمواجهة قلقهم الشخصي. هذا هو جوهر الوجود الانساني في هذا العالم الذي عبر عنه الامام علي.

الخاتمة

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا هو نص أدبي وأثر بلاغي وحكمة فلسفية واضحة المعالم، معقدة البنية. هذا النص هو جواب على سؤال الحياة الذي وضعته البشرية منذ ولادتها وإلى يومنا هذا وهو: ما هي الحياة الكريمة السعيدة لإنسان غير خالد؟

أجاب الامام بثنائية العقل(اعمل لدنياك) والايمان(واعمل لآخرتك). هذه الثنائية مبنية على ثلاثة أعمدة وهي: الأول هو، معرفة الوجود والغوص في أعماقه والكشف عن أسراره لكي يجد الانسان مكانه الصحيح في هذا الوجود وهي صورة الحياة التي اعتبرها ممر لدار ووجود مستقر وهي الآخرة.

اما الثاني، هو معرفة نظام الوجود والسنن التي تحكمه لكي يسهل على الانسان مرافقته والعيش فيه بسلام وأمان والابتعاد عن مواجهة تلك السنن. ومعرفة هذه السنن من خلال معرفة الشيء بنقيضه. معرفة الدنيا بنقيضها الآخرة، ومعرفة الخلود بنقيضه الموت.

اما الثالث هو سر الوجود لاسيما الوجود الانساني. كتب الله على الانسان العمل كقدر له لأن العمل يسير بالحياة مساراً يحوله من الامكان نحو التحقق، ومن التعطيل نحو التفعيل، وهذا هو جوهر الوجود الانساني في هذا العالم.

المصادر والهوامش

١.ألفريد أدلر (١٩٨٩): المعنى للحياة، دراسة نفسية للشخص، دار نشر بيوت، باريس ١٩٨٩.

٢.دوريان استور(١٩٩٦): سيرة نيتشة، دار نشر غاليمار، باريس ١٩٩٦.

٣.رضا بو شامة (٢٠٠٠): موقع راية الاسلام، صحيح مسلم ص ٢٣٤.

٤.أحمد مختار عمر(١٩٩٨): علم الدلالة، عالم الكتب ،ط٥ القاهرة ، ١٩٩٨.

٥.المصدر نفسه.

٦.ديدية ايريبون (١٩٩٤): ميشيل فوكو ومعاصريه، دار نشر فايارد، باريس ١٩٩٤.

٧.سيد عطية أبو النجا(١٩٨٦): كتاب نهج البلاغة مترجم الى الفرنسية، الشركة العالمية للكتاب،بيروت، ١٩٨٦.

٨.المصدر نفسه ، ص٢٥.

٩.المصدر نفسه ،ص٨٢.

١٠. المصدر نفسه ، ص٥١.

١١.المصدر نفسه، ص٦٨٨.

١٢.المصدرنفسه، ص٦٨٤.

١٣.المصدر نفسه، ص٧٠٤.

١٤.محمد سعيد الطريحي (٢٠١٥): كتاب علي امام الأمم، النجف الأشرف، ج١ص١٩.

١٥.سيد عطية أبو النجا (١٩٨٦): كتاب نهج البلاغة مترجم الى الفرنسية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٨٦.

١٦.المصدر نفسه، ص٥٥٦.

١٧.المصدر نفسه، ص٥٥٤.

١٨.كارل ماركس(١٨١٨-١٨٨٣): فيلسوف وعالم اجتماعي واقتصادي ومؤرخ من أصل الماني.

١٩.تشارل داروين (١٨٠٩-١٨٨٢): عالم طبيعي من اصل بريطاني صاحب نظرية أصل الأنواع.

٢٠.ألبيرت اينيشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥): عالم فيزياءمن أصل الماني، وصاحب النظرية النسبية.

٢١.هالبل (١٨٨٩-١٩٥٣): عالم فلكي من أصل أمريكي وله دور كبير في اكتشاف نظرية الانفجار الكوني الكبير البينغ بونغ في ١٩٥٠.

٢٢.فريدريك نيتشة (١٨٤٤-١٩٠٠): فيلسوف من أصل ألماني وهو صاحب نظرية أن الدافع الرئيسي للانسان هو الرغبة في امتلاك القوة.

٢٣. .سيد عطية أبو النجا (١٩٨٦): كتاب نهج البلاغة مترجم الى الفرنسية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٨٦، ص٥١.

٢٤.المصدر نفسه ، ص٣٦.

٢٥.المصدر نفسه ، ص١٥٠.

٢٦.المصدر نفسه ، ص٣٦.

٢٧.المصدر نفسه ، ص٤٦٥.

٢٨.المصدر نفسه ، ص٢٤١.

٢٩.المصدر نفسه ، ص ٢٤١.

٣٠.المصدر نفسه ، ص١٥٠.

٣١.المصدر نفسه ،ص٨٢.

٣٢.عرر الحكم:١٠٨٤٤.

٣٣.المصدر نفسه.

٣٤.جورج جرداق(١٩٥٦): الامام علي صوت العدالة الانسانية، دار الأندلس، بيروت،١٩٥٦.